تمهيد

سمعت اسم الرافعى لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً لا يكاد يفهم ما يلقى إليه ؛ فسمعت اسماً له جرس ورنين ، وله نشيد تتجاوب أصداؤه فى جوانب نفسى ؛ فحبب إلى من ذلك اليوم أن ألقاه . . .

ورأيته لأول مرة بعد ذلك بأشهر ، فرأيت رجلا كبعض من أعرف من الناس ؛ وكان جالساً وقتئذ فى قهوة على الطريق وبين يديه صحف يقرؤها ؛ فوقفت هنيهة أنظر إليه ، لا أكاد أصدق أن هذا الشخص الماثل أمامى هو الشخص الذى أعرفه فى نفسى . . .

وقرأت له أول ما قرأت ، نشيده المشهور « اسلمى يا مصر . . . » ، ثم دفع إلى صديق من أصدقائى كتاب « رسائل الأحزان » .

كنت يومئذ فى بكرة الشباب ، فى تلك السن التى تدفع الفتى إلى الحياة بعينين مغمضتين وفكر حالم ورأس يزدحم بالأمانى وقلب مملوء بالثقة ؛ ثم لا يكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود حتى يعرف أن أمانيه ليست فى دنيا الناس ، ويجد الفرق بين عالم قلبه وعالم حسه ، وتسخر منه الدنيا سخريتها الأليمة ؛ فيلجأ إلى وحدته الصامتة مطوياً على آلامه !

واستهوانى عنوان الكتاب الذى دفعه إلى صاحبى ، فتناولته أقلب صفحاته لا أكاد أفهم جملة إلى جملة ، حتى انتهيت إلى قصيدته « حيلة مرآتها »[1] ؛ فاذا شعر عذب يخالط النفس وينفذ فى رفق إلى القلب ؛ فأخذت أعيدها مرة ومرة ، فلم أدع الكتاب حتى استظهرت القصيدة . وحبب إلى هذا الشعر الساحر

---

(١) رسائل الأحزان ص ٥٠

أن أعود إلى الكتاب فأقرأه على مهل وروية ، لعلني أستدرك ما فاتني من معانيه ، وأدخر لنفسي قوة من سحر بيانه وصدق عاطفته . وعدت إليه أقرؤه قراءة الشعر : أفهمه بفكري ووجداني ، وأنظر فيه بعيني وقلبي ؛ فاذا الكتاب يكشف لي عن معناه . . .

وأحببت الرافعي من يومئذ ، فرحت أتتبع آثاره في الصحف وفي الكتب ، لا يكاد يفوتني منها شيء ؛ وعرفته ، ولم أزل كل يوم أزداد عرفاناً به ، ولكني لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد ذلك بعشر سنين . . .

كان ذلك في خريف سنة ١٩٣٢ ، وقد قصدت إليه في داره مع وفد ثلاثة نسأله الرأي والمعونة في شأن من شئون الأدب ؛ فلقينا مرحباً مبتسما وقادنا إلى مكتبه ، ثم جلس وجلسنا ؛ وفي تلك الغرفة التي تتنزل فيها عليه الحكمة ويلقى الوحي ، جلسنا إليه ساعة يجاذبنا ونجاذبه الحديث لا نكاد نشعر أن الزمن يمر . . .

كان جالساً خلف مكتب تكاد الكتب فوقه تحجبه عن عيني محدثه ، وعن يمينه وشماله مناضد قد ازدحمت عليها الكتب في غير ترتيب ولا نظام ، تطل من بين صفحاتها قصاصات تنبئك أن قارئها لم يفرغ منها بعد ، أو أن له عند بعض موضوعاتها وقفات سيعود إليها ؛ وعلى حيطان الغرفة أصونة الكتب المتراصة لا يبدو من خلفها لون الجدار . . .

ومضى يتحدث إلينا حديث العلم ، وحديث الأب ، وحديث الصديق ؛ فما شئت من حكمة ، وما أكبرت من عطف ، وما استعذبت من فكاهة . وطال بنا المجلس حتى خشينا أن نكون قد أثقلنا عليه فهممنا بالانصراف ، فاذا هو يطلب إلينا البقاء ، ويرجونا ألا نقلب مجلسه ؛ وعرفت الرافعي عرفاناً تاماً من يومئذ فلزمته ، وعرفني هو أيضاً فأصفاني عطفه ومودته .

وجلست إليه في الزورة الثانية وبين يديه صحف ، فدفع إلي صحيفة منها كان منشوراً فيها يومئذ قصيدة للأستاذ خليل مطران بك ، فطلب إلي رأيي في القصيدة ؛ ولم أتنبه ساعتئذ إلى غرضه ، وحسبته يقصد إلى أن يشاركني في لذة عقلية وجدها

فى هذا الشعر ؛ فتناولت الصحيفة وقرأت القصيدة ، ثم دفعتها إليه وقد أشرت بالقلم إلى عيون أبياتها ؛ وتناول الصحيفة منى ليرى اختيارى ورأيى ؛ فما عرفت إلا وقتئذ أنه كان يختبرنى ، ولكنى — والحمد لله — نجحت فى الامتحان قدراً من النجاح !

وتكرر هذا الاختبار وهو لا يحسبنى أدرك ما يعنى ؛ على أن إدراكى هذا قد جعلنى من بعد أكثر تدقيقاً فى اختيار الحسن مما أقرأ . وأولانى ثقته على الأيام ، فكان على أن أقرأ أكثر ما يهدى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التى يعنيه أن يقرأ منها ، وأدع ما لا جدوى عليه من قراءته ضناً بوقته . وكنت أنا أكثر ربحاً بذلك !

إنى لأحس حين أذكره الساعة كأننى لست وحدى ، وكأن روحاً حبيبة تطيف بى وترف حولى بجناحين من نور ، وكأن صوتاً ندياً رفيع النبرات يتحدث إلى من وراء الغيب حديثاً أعرف جرسه ونغمته ؛ ولكننى لا أرى ، ولكننى لا أسمع ، ولكننى هنا وحدى ، تتغشانى الذكرى فتخيل إلى ما ليس فى دنياى . . .

لقد كان هنا صوت يتجاوب صداه بين أقطار العربية ، لقد كان هنا إنسان يملأ فراغاً من الزمان ، لقد كان هنا قلم يصر صريراً فيه رنات المثانى وفيه أنات الوجع ، وفيه همسات الأمانى وفيه صرخات الفزع ، فيه نشيج البكاء وفيه موسيقى الفرح . . . خفت الصوت ، ومات الانسان ، وتحطم القلم ؛ ولكن قلب الشاعر ما زال حياً ينبض ، لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء !

* * *

وجاءنى نعى الرافعى بعد ظهر الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ فغشيتنى غشية من الهم والألم سلبتنى الفكر والارادة وضبط النفس، فلم أكد أصدق فيما بينى وبين نفسى أن (صادق الرافعى) الذى ينعاه الناعى الساعة ، هو الرجل الذى أعرف ويعرف الناس ؛ ودار رأسى دورة جمعت لى الماضى كله بزمانه ومكانه فى لحظة فكر ، وتتابعت الصور أمام عينى تنقل إلى خيال هذا الماضى بألوانه وأشكاله ومجالسه وسمره وأحاديثه ،

من أول يوم لقيت فيه الرافعى إلى آخر يوم جلست إليه ...

وعدت إلى النعى أقرؤه وفى النفس حسرة والتياع ، فما زادتنى قراءته شيئاً من العلم إلا أن مصطفى صادق الرافعى قد مات !

حينئذ أحسست كأن شيئاً ينصب انصباباً فى نفسى ، وأن صوتاً من الغيب يتناولنى من جهاتى الأربع يهتف بى ، وأن حياة من وراء الحياة تكتنفنى الساعة لتملى على شيئاً أو تتحدث إلى بشىء ، وكأن عينين تطلان على من وراء هذا العالم المنظور لتأمرانى أمراً وتلهمانى الفكر والبيان ، هما عينا الرجل الذى أحببته حباً فوق الحب ، وأخلصت له وأخلص لى إخلاصاً ليس منه إخلاص الناس ، ثم نزغ الشيطان بينى وبينه ففارقته وفى نفسى إليه نزوع وفى نفسه إلى ، فلم ألقه من بعد إلا رسماً فى ورقة مجللة بالسواد ... !

وعرفت منذ الساعة أى واجب على لهذا الراحل العزيز .

* * *

لقد عاش الرافعى فى هذه الأمة وكأنه ليس منها ، فما أدت له فى حياته واجباً ، ولا اعترفت له بحق ، ولا أقامت معه على رأى ؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة ، فعاش ما عاش ينبهها إلى حقائق وجودها ومقومات قوميتها ، على حين كانت تعيش هى فى ضلال التقليد وأوهام التجديد . ورضى هو مقامه منها غريباً معتزلاً عن الناس، لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف من الكتب وينشر فى الصحف ، أو من خلال ما يكتب عنه خصومه الأكثرون ؛ وهو ماض على سنته سائر على نهجه لا يبالى أن يكون منزله بين الناس فى موضع الرضا أو موضع السخط والغضب ، ولا ينظر لغير الهدف الذى جعله لنفسه منذ يومه الأول ، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربى فى هذه العجمة المستعربة ، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ؛ وما كان — رحمه الله — يرى فى ذلك إلا أن الله قد وضعه فى هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية ، لا ينال منهما نائل إلا انبرى له ،

ولا يتقحم عليهما متقحم إلا وقف فى وجهه ؛ كأن ذلك (فرض عين) عليه وهو على المسلمين (فرض كفاية) ؛ وأحسبه قال لى مرة وقد كتب إليه صديق يلفته إلى مقال نشرته صحيفة من الصحف لكاتب من الكتاب تناول فيه آية من القرآن بسوء التأويل : « من تراه يا بنى يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعى ؟ » وما كان هذا من اعتداده بنفسه ، ولكنه كان مذهبه وإليه غايته ، وكأن القدرة التى هيأته وأنشأته بأسبابها لهذا الزمان ، قد فرضت عليه وحده سداد هذا الثغر ؛ وكان إلى ذلك لا ينفك باحثاً مدققاً فى بطون الكتب حيناً وفى أعماق نفسه المؤمنة حيناً آخر ، ليستجلى غامضة من غوامض هذا الدين ، أو يكشف عن سر من أسراره فينشر منه على الناس ؛ وأحسبه بذلك قد أجد على الاسلام معانى لم تكن تخطر على قلب واحد من علماء السلف ، وأراه بذلك كان يمثل (تطور الفكرة الاسلامية) فى هذا العصر . فاذا كانت الأمة العربية المسلمة قد فقدت الرافعى ؛ فما فقدت فيه الكاتب ، ولا الشاعر ، ولا الأديب ؛ ولكنها فقدت الرجل الذى كان ولن يكون لها مثله فى الدفاع عن دينها ولغتها ، وفى النظر إلى أعماق هذا الدين ، يزاوج بينه وبين حقائق العلم وحقائق النفس المستجدة فى هذا العصر ، ولقد يكون فى العربية كتاب وشعراء وأدباء لهم الصيت النابه ، والذكر الذائع ، والصوت المسموع ؛ ولكن أين منهم الرجل الذى يقوم لما كان يقوم له الرافعى : لايترخص فى دينه ، ولايتهاون فى لغته ، ولا يتسامح لقائل أن يقول فى هذا الدين أو فى هذه اللغة حتى يرده من هدف إلى هدف أو يفرض عليه الصمت ...

لقد حاول كثير من مؤرخى الأدب أن يتحدثوا عن الرافعى فى حياته ؛ فقالوا شاعر ، وقالوا كاتب ، وقالوا أديب ، وقالوا عالم ، وقالوا مؤرخ . ولكنهم لم يقولوا الكلمة التى كان ينبغى أن تقال : لقد كان شاعراً ، وكاتباً ، وأديباً ، وعالماً ، ومؤرخاً ؛ ولكنه بكل أولئك ، وبغير أولئك ، كان شيئاً غير الشاعر والكاتب والأديب ، وغير العالم والمؤرخ ؛ كان هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة فى هذا الزمان ، لينبهها إلى حقائق وجودها ، وليردها إلى مقوماتها ؛ وليشخص لها

شخصيتها التى تعيش باسمها ولا تعيش فيها ، والتى تعتز بها ولا تعمل لها

يرحمه الله ! لقد عاش فى خدمة العربية سبعاً وثلاثين سنة من عمره القصير ، وصل بها حاضرها الماثل بماضيها البعيد ؛ فهى على حساب الزمن سبع وثلاثون ، ولكنها على الحقيقة عصر بتمامه من عصور الأدب ، وفصل بعنوانه فى مجد الاسلام !

لقد عاش غريباً ومات غريباً ، فكأنما كان رجلاً من التاريخ بعث فى غير زمانه ، ليكون تاريخاً حياً ينطق بالعبرة ويجمع تجاريب الأجيال ، يذكر الأمة العربية الاسلامية بماضيها المجيد ؛ ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلغ رسالته .

لقد خفت الصوت ، ولكنه خلف صداه فى أذن كل عربى وفى قلب كل مسلم ، يدعوه إلى الجهاد لمجد العرب ولعز الاسلام !

* * *

وبعد، فماذا يعرف الناس عن الرافعى وماذا أعرف؟ هل يعرف الناس إلا ديوان الرافعى ، وكتب الرافعى ، ومقالات الرافعى ؟ ولكن الرافعى الذى يجب أن يعرفه أدباء العربية ليس هناك . فماذا يكتب عنه الكاتبون غداً إن أرادوا أن يكتبوا هذا الفصل الذي تم تأليفه فى تاريخ العربية ؟

لقد عشت مع الرافعى عمراً من عمرى فى كتبه ومقالاته ، فما عرفته العرفان الحق ؛ وعشت معه بعد ذلك فى مجلسه وفى خاصته ، وخلطته بنفسى وخلطنى بنفسه ؛ فما أبعد الفرق بين الصورتين اللتين كانتا له فى نفسى من قبل ومن بعد ؛ أفترانى بهذا أستطيع أن أقول عن الرافعى شيئاً أؤدى به بعض ما على بن الدين للعربية وللفقيد العزيز ؟

إننى لأحس عبئاً ثقيلاً على عاتقى ، لا طاقة لى بأن أحمله وليس على أحد غيرى أن يقوم به . ولقد كتبت منذ عامين شيئاً عن الرافعى يعرفه إلى قراء « الرسالة » ، فما أحسبنى لقيت فى ذلك من الجهد إلا بمقدار ما استحضرت الفكر وتناولت القلم ؛ على أن الرافعى كان يومئذ حيا ، وكنت أحذر أن يغضب أو ينالنى منه عتب ؛ فكيف بى اليوم والرافعى بعيد فى العالم الثانى ، والكلمة للتاريخ ، ووسائل

العلم منى قريبة ؛ ورسائل الأدباء تترى تستنجزنى الوعد وتقتضينى الحق الذى على للأدب والعربية ، وصوت الفقيد العزيز يهتف بى حيثما توجهت : « إن لى عليك حقاً ، وإن للأدب عليك ... ! » .

ولكنى ما أكاد أمسك القلم حتى يكتنفنى الشعور بالعجز ، فأكاد أوقن أنه لا أحد يستطيع أن يكتب عن الرافعى إلا الرافعى نفسه ، ولكن الرافعى قد مات .

أيها الحبيب العزيز الذى ما أزال من كثرة ذكراه كأننى منه على ميعاد ... معذرة إليك !

وهأنذا أحاول أن أكتب عن الرافعى ؛ فلا ينتظر أحد منى — فى هذا الكتاب — أن أتكلم عن الرافعى الشاعر ، أو الرافعى الكاتب ، أو الرافعى الأديب ، أو الرافعى الفيلسوف ؛ فما يتسع له يومى ، وما يرضينى عن نفسى ولا يقنعنى بالوفاء أن أكتب عن هذه الحيوات الكثيرة التى اجتمعت فى حياة إنسان ؛ ولكنى سأكتب — هنا — عن الرافعى الرجل الذى عاشرته زمناً ، ونعمت بصحبته ، وخلطته بنفسى ، وتحدث قلبه إلى قلبى ، وتكاشفت روحه وروحى ؛ سأكتب عن الرافعى الذى عاش على هذه الأرض سبعاً وخمسين سنة ثم طواه الموت : سأحاول أن أجمع شتات حياة تفرقت أخباراً وأقاصيص ونوادر على لسان معاصريه ، أو غابت سراً فى صدور أهله وخاصته ؛ أما الرافعى الشاعر الكاتب الأديب الفيلسوف ؛ فللحديث عنه كتاب غير هذا الكتاب ، وسيجد الباحثون مما أقول عنه مادة لما يقولون فيه ، ولعلى أن أوفق فى البلوغ إلى ما قصدت . وإننى لأتهم نفسى من كثرة ما أحب الرافعى أن أتحيف الأدب ، لو بدا لى فى هذا التاريخ أن أقول: هذا رأيى . ولكنى سأقول : هذا ما رأيت . فمن كانت له عين بصيرة تنفذ إلى ما وراء المرئيات ، وتربط الأسباب بالمسببات ، فسيبلغ جهده ويرى رأيه .

ولقد كان الرافعى منذ قريب إنساناً حياً بعواطفه وأمياله وحبه وبغضه وشهواته النفسية ، ولكنه اليوم فصل من تاريخ العربية بألوانه وفنونه ؛ فلا على اليوم إن قلت كل ما أعرف عنه خيراً وشراً ؛ فانما أكتب للتاريخ ، والتاريخ لا يحابى

ولا يحتسب ، وستمر بى فى تاريخ الرافعى حوادث وأسماء سأصفها وأعرف عنها بقدر ما ، كما سمعتها أو عرفت عنها ؛ فأيما كاتب أو أديب أو رجل أو امرأة أو ذى شأن أحس فيما أكتب شيئاً ناله بما يوجب المدح أو المذمة ، فلا يشكر ولا يتعتب ؛ فان التاريخ بعد أن يقع لا يمكن محوه ... وما فات من تاريخ الانسان فهو جزء انفصل من حياة صاحبه ، وإنما له ما هو آت ، وما أحب أن يقول لى أحد صدقت أو كذبت ؛ فما هذا الذى أكتب رأياً أراه ، ولكنه رؤية رأيتها أو رواية رويتها فأثبتها مسندة إلى راويها وعليه تبعتها .

إن التاريخ الأدبى للرافعى يبدأ من سنة ١٩٠٠ ، وتاريخ ميلاده قبل ذلك بعشرين سنة ؛ وأنا ما بدأت صلتى بالرافعى إلا سنة ١٩٣٢ ؛ فما كان من هذا التاريخ فسأرويه من غيب صدرى أو مذكراتى وعلى تبعته ، وما كان من قبل فقد سمعت به من أهله وأصدقائه الأدنين وخلطائه منذ صباه ، أو كان مما قصه على أو عرفت عنه من أوراقه الخاصة ورسائله إلى صحبه ورسائل صحبه إليه . فهذه مصادر علمى أقدمها بين يدى هذا الحديث ، ليعرف قارئه أين مكانه من الصدق ومنزلته من الحق . على أن الذاكرة خئون ، وما يمر على فكر الانسان من مختلف الحوادث وصروف الأيام ينسيه أو يلهيه أو يخلط فى معلوماته شيئاً بشىء ؛ فمن كان يعرف شيئاً من تاريخ الرافعى ورأى أنى تصرفت فيه بنقص أو زيادة أو تغيير أو تبديل ، فليجعلنى عنده بمنزلة من حسن الظن ؛ والله أسأل أن يجنبنى الخطأ ، وأن يوفقنى فيما أنا بسبيله .

صـــــورته

كان الرافعى رجلاً كبعض من تعرف من الناس : له مالهم مما يتميز به الانسان ؛ فلم يكن الناظر حين ينظر إليه ليلمح له امتيازا فى الخلق يدل على نفسه أو عقله أو عبقريته

بل لقد يشك الناظر إلى وجهه فى أن يكون وراء هذه السحنة وهذه الملامح نبوغ أو عبقرية أو فكر سام !

وجه ممسوح مستطيل ، أقرب إلى بياض أهل الشام منه إلى سمرة أهل مصر ؛ فى وجنتيه احمرار دائم قد ترى مثله فى شفتيه ؛ وله عينان كأنما ينظر بهما إلى نفسه لا إلى الناس ، فما ترى لهما بريقا فى عينيك ولا تسمع لهما همساً فى نفسك ؛ وجبهة عريضة تبدأ فوق الحاجبين غائرة نوعاً ما ، ثم تبرز مقوسة قليلاً إذا اقتربت من فروة الرأس ؛ وأذنان فيهما كبر ما ولكنهما لا تؤديان عملا ولا تنقلان إليه معنى ، ومن ذلك كان قليل التلفت فى مجلسه ؛ وأنف طويل مستدق من أعلاه منتفخ من أسفله . وكأنما صنعت له شفتاه ابتسامته الدائمة ، فلا ترى فمه مغلقاً أبدا إلا رأيته كأنما يحاول أن يحبس ابتسامة هاربة ، وتحمل شفته شارباً كثيفاً أشمط ، تحيفته الأيام من أطرافه ، فتصاغر طرفاه بعد استعلاء وكبر ...

وصوت عال رفيع النبرات ليس له لون ولا معنى ، تسمعه على أى أحواله كما تسمع صراخ الطفل ، له عذوبته وتطريبه ، ونغمة الحزن ونغمة الفرح عنده سواء !

وقامة رياضية متناسبة بريئة من الفضول ، لا يشينها طول ولا قصر ، ولا سمن ولا نحافة

وكان أشمط خفيف شعر الرأس حليق اللحية دقيق الحاجبين، عريض المنكبين غليظ العنق قوى الكف والساعد ؛ مما كان يعالج من تمرينات الرياضة

تلقاه فى الطريق فى يده عصا لا يعتمد عليها ولكنه يهزها فى يمينه إلى أمام ووراء ، ويتأبط بيسراه عديدا من الصحف والمجلات والكتب ، ماشيا على حيد الطريق لا يميل ، واسع الخطو لا يتمهل ، ناظراً إلى الأمام لا يتلفت إلا حين يهم باجتياز الطريق

تلك صفاته الجسمية التى وارتها التراب كما لا تزال فى ذاكرتى ، أما صورته العقلية ، أما حياته ، أما أيامه على هذه الأرض منذ كان إلى أن زال ؛ فذلك ما سأجلوه فى الفصول التالية إن شاء الله